الحرب قناة للتواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط الغربي خلال العصر الوسيط

"خطاطة للتفكير في الموضوع"

أ.د.عبد العزيز غوردو
أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية
أكاديمية الجهة الشرقية
وجدة - المملكة المغربية
ghourdou.abdelaziz@voila.fr

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد العزيز غوردو ، الحرب قناة للتواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط الغربي خلال العصر الوسيط.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٦٠ – ٦٢.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

الحرب والحضارة أي علاقة ؟

يبدو الأمر للوهلة الأولى كمن يحاول أن يبحث في شخصية رجل مخابرات عن شاعر ، أو كمن يبحث في العلاقة بين الإيقاع الموسيقي وصليل دبابة عسكرية ، إذ أي علاقة يمكن أن تقوم بين الحرب والحضارة غير تلك التي تضع الأولى مدمرة للثانية ، ونافية لها ، ذلك أنه من المعلوم بطبيعة المفهومين ، أنه من شأن الحضارة البناء والتعمير ، ومن شأن الحرب الخراب والتدمير ، فكيف يمكن أن ينشأ عن هذا التضاد ، في المحتوى والفعل ، تفاعل إيجابي ، يستخرج من ركام الحرب آليات لتواصل حضاري بناء ؟ هذا ما ستحاول هذه الورقة رسم خطوطه العريضة ، من خلال تقديم تصور أولي للبحث في موضوع ، يحتاج بعد إثارته إلى بحث متأن وطويل ، متخذا من حوض المتوسط الغربي الوسيط ، مختبرا لرصد وتحليل مجالات التقاطع بين المفهومين: الحرب والحضارة ، أو بالعبارة المعنونة للموضوع: الحرب باعتبارها قناة تواصل حضاري.

الضفتان الشمالية والجنوبية للمتوسط الغربي بين الجغرافيا والحضارة

جغرافيا: تحديد مجالي مضبوط من حيث الدلالة والمحتوى: الجزء الأوربي يمثل الضفة الشمالية ، من الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية إلى الساحل الأسباني من شبه الجزيرة الأيبيرية. والجزء الأفريقي يمثل الضفة الجنوبية ، الساحل الشمالي لما يعرف ببلاد المغرب ، رغم ما يعتور مفهوم بلاد المغرب نفسه من ثغرات في الإيسطوغرافيا العربية الكلاسيكية.

لكن حضاريا يتعقد المفهوم:

- لا يمكننا أولا عزل الساحل الشرقي لإيطاليا عن الغربي ، على الرغم من أن إيطاليا لم تكن موحدة في العصر الوسيط ، لأن بعض إماراتها كانت تطل على الجهتين الشرقية والغربية.
- لا يمكننا أيضا عزل البرتغال عن شبه الجزيرة الأيبيرية ، لأن البرتغال – أو على الأقل جزء منه – كان جزءا من الأندلس الإسلامية لفترات طويلة من العصر الوسيط ، ثم لأنه ، البرتغال ، حتى بعد أن بنى كيانه السياسي المستقل ، الذي ينظر لبحر الظلمات ويولي ظهره لأوربا ، ظل يساهم بقوة في أحداث المتوسط الغربي ، علاوة على احتلاله لبعض سواحل ومدن بلاد المغرب التي تنتمي جغرافيا للمجال المتوسطي ، في نهاية الفترة موضوع بحثنا.
- تشكل الأندلس/أيبيريا لوحدها معضلة تعقد مشكلة تحديد الشمال والجنوب (لاحظ أننا اليوم أيضا نصادف نفس التعقيد عندما نريد ضبط مفهوم "الشمال والجنوب". الشمال: البلدان المتقدمة ، جغرافيا لا تتموقع كلها في الشمال (نموذج أستراليا) ، والجنوب: البلدان المتخلفة أو النامية أو السائرة في طريق النمو أو حتى السائرة في طريق التخلف... لا تتموقع هي أيضا كلها في الجنوب (نموذج ألبانيا) ، فهذه المنطقة ، بلاد الأندلس ، يمكن أن نعتبرها ولفترة طويلة جزءا من الجنوب ، ليس لتبعيتها للمغرب

خاصة زمن المرابطين والموحدين فقط ، لكن لأنها تدخلت وتحكمت زمن قوة الأمويين في بلاد المغرب نفسها ، ولأنها ، وهذا هو الأهم ، ظلت تشكل جزءا من الجنوب حضاريا ، إلى متم القرن الخامس عشر الميلادي. (لاحظ أننا اليوم عندما نقول "الشرق والغرب" نقصد شيئا آخر غير ما يحيلنا عليه المعنى الجغرافي ، بل لا يكاد يغيب عن أذهاننا لحظة واحدة أننا لا نقصد إلا مجالين مختلفين ، متكاملين أو متعارضين ، حضاريا ، أي مستويين حضاريين متنافرين بقدر ما يدعيان ، أو يتصنعان ، عوامل الانجذاب بينهما. لاحظ أيضا وفي التاريخ بالضبط أننا عندما نريد دراسة الإمبراطورية البيزنطية ندرجها ضمن تاريخ أوربا القديم ، وعندما ندرس الدولة العثمانية ندرجها ضمن تاريخ الشرق الأوسط على الرغم من أن مهد الدولتين معا هو بلاد الأنضول: ألا يحيل هذا على تصنيف حضاري ؟ أو بسؤال أكثر إجرائية: ألا يتأسس ذلك على خلفية الصراع بين الإسلام والمسيحية ؟)

الحرب قناة للتواصل الحضاري خلال العصر الوسيط

ننطلق من حيث انتهينا عند السؤال/الملاحظة الأخيرة ، في بحثنا عن نصف موضوعنا الثاني: "التواصل الحضاري خلال العصر الوسيط ". لا يحتاج الباحث إلى كبير عناء لإيجاد تحديد زمني تقريبي ، مبرر ، لما يصطلح عليه بالتاريخ الوسيط ، رغم الجدل الكبير – العنيف أحيانا – الدائر في فلسفة التاريخ بين "تصنيفاتنا" و"تصنيفاتهم" ، بسبب الإسقاطات التي يجنح إليها كل تصنيف. رغم ذلك يمكننا أن نتلمس حدودا تقريبية مشتركة بين الضفتين/الحضارتين ، لتاريخ وسيط موحد. مثلاً: سقوط روما وظهور الإسلام مرحلة لبداية هذا التاريخ. وسقوط الأندلس ، والاكتشافات الجغرافية ونهاية الدولة المركزية المغربية الوسيطية ووصول العثمانيين للمنطقة مرحلة لنهاية هذا التاريخ. لكن ماذا عن "الحرب باعتبارها قناة للتواصل الحضاري" ؟

قلنا بأننا سننطلق ، في تحديد مطلبنا الثاني ، من حيث انتهينا في المطلب الذي سبقه "مفهوم الشمال والجنوب" ، أي الصراع بين الإسلام والمسيحية ، بما هما دينان وحضارتان يسعيان إلى الامتداد ، وبما أن امتداد أحدهما يعني انحسار الآخر بالضرورة ، فإن الواحد منهما لا يمكنه أن يمتد إلا على حساب مجال الثاني ، بحيث يلاحظ بأن ما اصطلحنا على نعته بداية لتاريخ وسيط مشترك ، أن هذه البداية سجلت "حربا مقدسة" إسلامية (الجهاد ضد "دار الحرب") والتي انتهت بسقوط الأندلس في يد المسلمين ، تتويجا لعمليات الفتوحات الإسلامية على الجبهة الغربية ، أما نهاية التاريخ الوسيط المشترك فسجلت "حربا مقدسة" عكسية (يصنفها الكثير من المسلمين على أنها "حرب صليبية" ، بينما يسميها المسيحيون "حرب استرداد") انتهت بسقوط الأندلس من جديد في يد القوى المسيحية ، أكثر من ذلك بدأت هذه القوى المسيحية تسجل تقدما على المجال الجنوبي للمتوسط ، في عملية طويلة ستنتهي باستعماره.

وبين البداية والنهاية لم تكد الحرب تفتر بين الفريقين أهمها وقعت زمن عبد الرحمان الداخل وعبد الرحمان الناصر والمنصور بن أبي عامر ، بل ما عبر المرابطون والموحدون والمرينيون إلى الأندلس إلا تحت مظلة الجهاد ، وما وصل العثمانيون شمال أفريقيا إلا تحت لواء الجهاد البحري مع عروج وخير الدين.

تأسيسا على هذه الملاحظة ، وانطلاقا من كل ما سبق ، يطرح السؤال: ألم تكن "الحرب" واحدة من أهم قنوات التواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط الغربي ؟ عندما نسجل أن الحرب تشكل قناة على مستوى بالغ الأهمية في هذا التواصل ، لا ينبغي أن يغيب عنا أنها ، الحرب ، في النهاية هي نفسها نتاج حضاري ، بما هي اختراع بشري أولا ، وأن انتقال آلياتها وعدتها وعتادها وخططها وتكتيكاتها... يمكنها أن تؤلف لوحدها موضوع تفاعل حضاري. وأنها ، ثانيا ، يستحيل عليها التطور ، بمعنى الامتداد ، بمعزل عن القلاع والحصون والمنشآت العسكرية ، التي تجبرنا على التقاطع مع المدن في النهاية ، بما تحمله المدن/التمدين من محتويات حضارية. ثم إنها ، ثالثا ، تجر إلى قنوات أخرى تابعة:

- فالحرب تجر إلى التحالف (نعرف بأن تحالفات عديدة تمت بين إمارات إسلامية/إسلامية ، ومسيحية/مسيحية ، بل وإسلامية/مسيحية ، على خلفية الحرب).
- الحرب أيضا تدعو للارتزاق (قناة أخرى للتواصل الحضاري عبر السفارات والتمثيل القنصلي ، بغية تنظيم وتسهيل حياة المرتزقة في البلاد المستقبلة) ، كما أنها ، أي الحرب ، تجر للاسترقاق ، ولا يخفى ما يمكن أن يلعبه الرقيق كقناة للتواصل الحضاري.
- والحرب أيضا تتحكم في قناة أخرى هي قناة التجارة (التي عادة ما تزدهر في فترات السلم ، وتتراجع وتنكمش فيما عداها ، أي فترات الفوضى والحرب ، والإسلام نفسه يمنع الحربي غير المعاهد من أن يتاجر في دار الإسلام ، والقانون نفسه نجده في الإمارات المسيحية).
- من قنوات التواصل الحضاري التي تتحكم فيها الحرب أيضا ، قناة تبادل السفارات التي كثيرا ما تبادلتها الضفتان الشمالية والجنوبية لافتداء الأسرى ، أو لضمان حقوق الجاليات في بلد الخصم ، ومن ثم عبور التأثيرات الحضارية من هذه الضفة إلى تلك.
- والحرب أخيرا ، وليس آخرا ، تدفع الخصوم إلى التجسس على بعضهم البعض ، مما يستدعي من كل طرف التعرف على ثقافة "الآخر" عبر ترجمة نتاجه الثقافي والحضاري ، مما يؤدي إلى تفاعل (تأثير/تأثر) كل طرف بخصمه.

نشير ، ونحن بصدد تسجيل خاتمة لهذه الملاحظات ، أن الحرب لا تؤدي فقط إلى التفاعل الحضاري لما يمكن نعته "بالعلاقات البرانية" (أي استفادة العالم المسيحي حضارياً من العالم الإسلامي ، أو العكس) عبر المداخل التي ذكرناها أعلاه بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية ، بل إنها ، أي الحرب ، تفيد في التلاقح الحضاري فيما بين "العلاقات الجوانية" أيضا (أي استفادة الإمارات الإسلامية من بعضها البعض ، وكذلك الشأن بالنسبة للإمارات المسيحية أيضا) ، حيث إنها كثيرا ما تؤدي إلى تثوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها... داخل "دار الإسلام" وداخل "دار الحرب" – بالاصطلاح الإسلامي – كمجالين مغلقين ذاتيا ، ولنا في سقوط الأندلس غربا ، وسقوط القسطنطينية شرقا ، الأدلة القوية على ما نقول: فهجرة الموريسكيين إلى مدن بلاد المغرب أدى لتطورات خطيرة على جميع المستويات بالبلدان المستقبلة ، وهجرة المسيحيين من القسطنطينية ، إلى غرب أوربا ، وخصوصا إيطاليا ، ساهم بشكل فاعل في نهضة إماراتها.

خاتمة

تقترح السطور المقدمة هنا البحث في الحرب باعتبارها آلية لبناء الحضارة ، عكس ما يجرى التفكير به عادة ، حيث يتم اعتبارها آلية للهدم ، ولم تتسع السطور لتقديم إجابات بقدر ما طرحت إشكالية مركزية ، تفرعت عنها محاور وتساؤلات للبحث والاستقصاء.

يحلو للإنسان عادة (والإنسان هنا بمعناه المفكر الهادف الواعي) أن يردد بأن دلالة تفجير السؤال تفوق كثيراً لملمة عناصر الجواب ، لذلك سيظل السؤال يحاصر هذه المقال حتى النهاية ، بحيث يبدو السؤال مبتداه وبالسؤال منتهاه: هل ما توصلنا إليه عبر هذه "الخطاطة" (أو الاقتراح) هي فعلا "خطاطة" ملائمة للظاهرة المشخصة ؟ أم أن التشخيص نفسه انطلق من موضوعة غير مستساغة منذ البداية ؟

لا نريد عبر هذا السؤال فتح باب في باب ، أي فتح بحث تجريبي داخل بحث تجريبي (ميدان الخطاطة) ، لكن السؤال هنا يستمد مشروعيته من هذه التجريبية (Empirisme) بالضبط ، لأن طبيعة ميدان الخطاطة ، أو بالأصح ميادينها ، تختلف باختلاف تصورات كل باحث يعرضها للدراسة ، ومعها تختلف تساؤلات وإشكاليات المنطلق قطعاً ، بحيث نصل في النهاية إلى أن ما قدمناه ، في موضوعنا ، كان مجرد "قراءة" تستدعي بداهة وصلها بقراءات غيرها ، تثريها أو تقومها ، أو ربما حتى باستقصائها عبر أطروحة مستقلة ، متأنية ، عالمة.

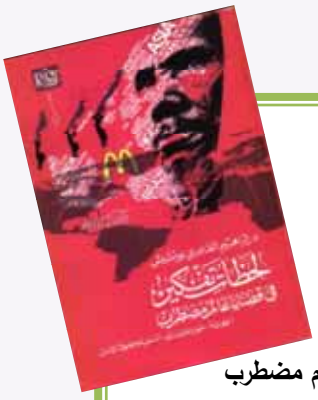

من إصدارات ٢٠١٠ كتب

لحظات تفكير في قضايا عالم مضطرب
الهوية – الحوار الحضاري – التنمية وحقوق الإنسان

المؤلف: د.إبراهيم القادري بوتشيش
أستاذ التاريخ بجامعة مولاي إسماعيل
مكناس – المغرب
الناشر: دار رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة ٢٠١٠ (٣٦٨) صفحة

الكتاب عبارة عن قراءة في بعض قضايا العالم الراهن التي تأثرت إلى حد كبير بسيادة الرأسمالية الليبرالية كقوة تتحكم في إنتاج قيمه وثقافته انطلاقا من المصالح الخاصة والتفوق العسكري والتكنولوجي على حساب القيم الإنسانية، مما جعل هذا العالم يفقد توازنه ويفرخ مجموعة من الأزمات التي سببت اضطرابا ورجة عنيفة في النظام القيمي العالمي، فتغيرت المفاهيم الأخلاقية، وظهر قاموس جديد من المفاهيم المناقضة لكرامة الإنسان، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

من هذا المنظور، تسعى الأبحاث الواردة في الكتاب إلى تسليط الضوء على مشاهد متعددة من تلك الاضطرابات التي عرفها العالم في منظومة القيم، لكنها لا تقف عند حد وصف المشهد المضطرب فحسب، بل تمتد مساحتها إلى مناقشة تداعياته على العالم العربي- الإسلامي، خاصة ما يتعلق بالفتن المذهبية التي زادت تأججا، والمسارات التنموية التي صارت رهنا بالاستتباع السياسي للأنظمة العربية الحاكمة، والهوية واللغة التي أصبحت مهددة تحت غطاء حرية المعتقد والتعدد الثقافي وحقوق الإنسان. ويقدم المؤلف بعض المبادئ والمقترحات التي يراها قادرة على الممانعة ومواجهة أعاصير هذا العالم المضطرب.